(٦٥) الحكيم الترمذي[١]

ذكر الشيخ محمد بن علي الحكيم الترمذي رحمه الله:

كان رحمه الله، من أهل الاحتشام والاحترام بين المشايخ، حميدَ الخصال، مرضيَّ الفعال، شارحًا لمعضلات الأقاويل، مُعتمَدًا عليه في الأحاديث والأخبار، ثقةً بينهم في المعارف والحقائق.

وله قبولٌ عظيم عند الخلق، وشفقةٌ عظيمة عليهم[٢]، ورياضاتٌ كثيرة، وكراماتٌ عاليةٌ، وكان في فنون العلوم كاملاً، وفي الشريعة والطريقة مُجتهدًا.

وقد اقتدى به جماعةٌ من أهل ترمذ.

وكان عالمًا ربَّانيًا، مجتهدًا غيرَ مقلِّدٍ لأحدٍ من أصحاب المذاهب، مُكاشفًا للأسرار والحكم، حتى سُمّي حكيمَ الأولياء.

صحب أبا تُراب النَّخشبي، وأحمد بن الخضرويه، وابن جلاء رحمهم الله، وتكلّم مع يحيى بن معاذ الرازي.

وله تصانيفُ كثيرةٌ مشهورة[٣].

---

(١) طبقات الصوفية ٢١٧، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٣، الرسالة القشيرية ٨٤، الأنساب للسمعاني ٣/ ٤٢، مناقب الأبرار ٤٦٥، صفة الصفوة ٤/ ١٦٧، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٠٧، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٠٩، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٣٩، تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٤٥، طبقات ابن عبد الهادي (ترجمة ٦٣٦)، طبقات الشافعية ٢/ ٢٤٥، طبقات الأولياء ٣٦٢، لسان الميزان ٥/ ٣٠٨، نفحات الأنس ١٧٦، طبقات الشعراني ١/ ٩١، الكواكب الدرية ٢/ ١٣٠، طبقات الحفاظ ٢٨٢، مفتاح السعادة ٢/ ٣٠٩، شذرات الذهب ٢/ ٢٢١، هدية العارفين ٢/ ١٥.

(٢) في (ب): عظيمة عندهم.

(٣) له مؤلفات جمة منها: نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول، ختم الأولياء.

ولم يكن في عهده أحدٌ في ترمذَ يَفهمُ كلامَه، وكان مَهجورًا فيما بينهم لأجل هذا.

وهو في أول أمره قصدَ السفرَ مع صاحبين لأجل تحصيلِ العلم، وكانت والدتُهُ باقيةً، فاغتمّتْ لذلك، لأنها كانتْ عجوزةً ضعيفةً عاجزة، وهو كان قائمًا بخدمتها، وتحصيلِ معاشها، فقالت: يا ولدي، تُفارقني، وأنا كما ترى! فأثَّرَ كلامُها في قلبه، وتركَ السفرَ، وسافر صاحباه، ثم بعد خمسةِ أشهرٍ كان يومًا جالسًا في بعض المقابر، ويبكي بكاءً عظيمًا، ويتضرَّعُ ويقول: بقيتُ ضائعًا معطَّلاً، وأصحابي ورفقائي في التحصيل، وأنا في الجهل، ويتحسَّرُ ويتأسّف ويتلهّفُ، إذ طلع شيخٌ بهيجٌ نورانيٌّ، وقال: لِمَ تبكي؟ فأخبره حاله، فقال له: احضرْ هنا كلَّ يوم، وأنا أُعلِّمُكَ شيئًا من العلم. وهو كان يُواظبُ ذلك المكان، ويتعلّمُ منه إلى ثلاث سنين، ثم تبيَّنَ له أنّه الخَضِرُ عليه السلام، ولم ينلْ هذه الدرجة إلاّ ببركة دعاء والدته.

قال أبو بكر الورّاق: كان الخضِرُ عليه السلام يحضرُ عنده، ويعرضُ عليه واقعات، وهو أيضًا يعرضُ على الخضر عليه السلام واقعات.

وقال أبو بكر الورّاق: قال لي الشيخُ محمد بن علي رحمه الله: أُريدُ أن أذهبَ إلى مكانٍ. فقبلتُ كلامَه وتبعته، وتماشينا قليلاً، فإذا نحن في فلاةٍ صعبةٍ، ورأينا كرسيًا من ذهبٍ منصوبًا في ظلِّ شجرةٍ خضراء، وعينًا جاريةً من الماء البارد الزُّلال، ورأيتُ شيخًا جالسًا على الكرسيِّ، وعليه لباسٌ فاخرة، فسلّم الشيخُ محمدُ على ذلك الشيخ، فردَّ عليه الجواب، وقامَ له، وعظَّمَهُ، وأجلسه على الكرسيِّ في جنبه، فما مكثنا ساعةً إلاّ وجاءَ من كلِّ جانبٍ طائفةٌ، فأكلوا، ثم سألَ الشيخُ محمد ذلك الشيخَ مسألةً، وهو شرعَ في الجواب، وأطالَ، وأنا ما فهمتُ قطُّ معنى كلامه، ثم استأذنَ منه، ورجعنا، وقال لي: صرتَ سعيدًا؟ وبعد زمانٍ وصلنا إلى ترمذ، قلت: أَخبرني يا شيخ عن ذلك المكان، ومَنْ كان ذلك الشيخ؟ قال: أمّا المكان الذي رأيتَ فتيهُ بني إسرائيل، والشيخَ الذي رأيتَه هو قطبُ العالم الذي عليه مداره بقدرة الله تعالى. قلت

متعجِّبًا: كيف وصلنا ورجعنا في ساعةٍ واحدةٍ؟ قال: يا أبا بكر، مالك والسؤالَ عن كيفية الوصول، بعدما انتفعتَ في هذا السفر.

نقل أنه قال: سعيتُ مع النفس كثيرًا حتى أَحملَها على الطاعة، فما قدرتُ عليها، حتى كدتُ أن أقطعَ عنّي رجاءَ النجاة، وقلت: لعلَّ الله تعالى خلقَ نفسي للنار[١]، فإلى متى أُداري وأُربّي مخلوقًا للنار؟ وذهبتُ إلى ساحل جيحون، وأمرتُ شخصًا بأنْ كتّفني وألقاني على الأرضِ، وشدّ رجليَّ أيضًا، وذهب، ثم إنّي تدحرجتُ، حتى ألقيتُ جسدي في جيحون، وقصدي أنّي لعلّي أغرقُ، فأخلص من تبعة النفس وكيدها، فما أغرقني الماءُ بإذن الله، وانفتحتْ يداي ورجلاي، وقذفني إلى الساحل، فقلت: سبحان الله، نفسي لا تليقُ بالجنة ولا بالنار! وحصل لي يأسٌ منها، ففي الساعة فتحَ اللهُ بابًا في سرِّي حتى وجدتُ ما كنتُ أَطلُبُه، وغبتُ عنّي، ثم عشتُ ما عشتُ ببركة تلك الساعة.

نقل عن أبي بكر الورّاق أنه قال: أعطاني الشيخ محمدُ رحمه الله يومًا كرَّاسًا من مصنَّفاته، وأمرني أن أَرميه في نهر جيحون، فأخذتُه، وذهبتُ إلى جيحون لأمتثلَ أمرَه، فوقع في قلبي[٢] أن أنظر فيه، فنظرت، فإذا فيه لطائفُ ودقائق ونكات، فلم يُوافقْني قلبي في أن ألقيه في النهر، فرجعتُ به، فلمّا وصلتُ إليه سألني، وقلت: أَلقيتُهُ في النهر. قال: وما رأيتَ من العلامة؟ قلت: ما رأيتُ شيئًا. فقال: ما أَلقيتَهُ في النهر إذن. فأشكلَ عليَّ[٣] شيئان، أَحدُهما: أنّه لِمَ أَمرني بإلقائه في النهر؟ والثاني: طلب العلامة، فأتيت جيحون، ورميتُ الكرَّاسَ في الماء، فطلع صندوقٌ من الماء، وانفتح، ووقع الكرَّاسُ فيه، وانضمَّ ورجع إلى مكانه، فتعجَّبتُ ممّا رأيت، ورجعتُ إلى الشيخ، فقال: ما فعلتَ به؟ قلت: رميتُ به الآن في جيحون، لكنْ أُقسمُ عليك بعزَّةِ الله أن

---

(١) في (أ): لعل الله خلق ليعقبني النار.

(٢) في (أ): فوقع في بالي.

(٣) في (أ): فاستشكل عليَّ.

تُخبرني عن سرِّ هذا الأمر[١] فقال: صنَّفتُ شيئًا في علم الصوفية، كان كشفُهُ وتحقيقُهُ في غايةِ الصعوبة على العقول، والحالُ أنَّ أَخي الخضرَ عليه السلام طلبَ منّي ذلك الكرّاسَ، واللهُ تعالى أمرَ حوتًا في النهر ليُوصلَه إليه في ذلك الصندوق. وقال الشيخ محمد: إنّي أَلقيتُ جميعَ تصانيفي نوبةً في النهر، فأمسكَهُ الخضرُ، وردَّهُ عليَّ، وأمرني بالاشتغال به.

وقال رحمه الله: ما صنعتُ حرفًا عن تدبُّرٍ، ولا ليُنسبَ إليَّ شيءٌ منه، ولكن كان إذا اشتدَّ عليَّ وقتي، أَتسلّى به.

وقال رحمه الله: رأيتُ ربِّي جلَّ وعلا في المنام ألفَ مرَّةٍ وواحدة.

نقل أنّه كان رجل زاهدٌ في بلدة الشيخ محمد بن علي رحمه الله، وهو يُنكرهُ في جميع أحواله، ويعترضُ عليه في أقواله وأفعاله، حتى أنّه يَستنكفُ عن ردِّ جواب سلامه، وكان للشيخ بيتٌ يسكنه، ولم يكن له بابٌ، فاتَّفقَ له أن سافرَ إلى الحجاز، فلمّا رجعَ، رأى كلبةً قد ولدت في بيته، ولم يُردْ أن يُخرجَها منه، فدخل البيتَ وخرج في ليلةٍ ثمانين مرّةٍ على قصدِ أن تُخرجَ الكلبةُ أولادَها منه باختيارها، وذلك الزاهد المُنكر رأى النبيَّ ﷺ في تلك الليلة، فقال له: يا فلان، تعارضُ مع مَنْ دخلَ البيت وخرج ثمانين مرَّةً رفقًا لكلبةٍ وشفقةً، ولم يقصدْ إيذاءها وإخراجها من بيته؟ فاذهبْ إليه إن كنتَ من أهل السعادة، ولازمْهُ واخدمْهُ. فانتبه الزاهدُ، وأتى الشيخَ، وشدَّ نطاقَ خدمتِهِ على خاصرته، وواظبَ جميعَ ما بقي من عمره مجلسَه، وحسنَتْ أحواله.

نقل أنَّ بعضَ الناس سألَ من أهل الشيخ: أنَّه إذا غضبَ عليكم، فأنتم تَعرفون غضبَهُ؟ قالوا: نعم، فإنّه يومَ يَغضبُ يُحسنُ إلينا أكثرَ ما يكون، ويتركُ الأكلَ والشربَ في ذلك اليوم، ويكونُ باكيًا، ويقول: إلهي، ماذا فعلتُ اليومَ حتَّى سلّطْتَهم عليَّ؟ فإنّي تبتُ إليك، ورجعتُ عن ذلك الفعلِ، فأصلحْهم. ونحن أيضًا نتوبُ إلى الله، ونتصالحُ معه.

---

(١) قوله: (عن سرِّ هذا الأمر) ليس في (ب).

نقل أنّه ما رأى الخضِرَ مدّةً بعدما يرآه إلى أن خرجَ وعليه ثيابٌ نظيفة، وقصدَ الجامع، فطلعتْ جاريةٌ على سطحٍ، ومعها طستٌ مملوءٌ من البول والنجاسة، وصبَّتْهُ على الشيخ، وهو لم يغضبْ عليها، وكظمَ الغيظَ، وعبر، فرأى الخضر عليه السلام في ساعته.

نقل أنه اشتُهرَ من أدبه أنّه ما بصقَ قدَّامَ أهله، ولا ألقى النخامةَ، فجاء إليه رجلٌ، وقصد امتحانَهُ في هذا، فالتقى به في المسجد، ومكثَ إلى أن خرجَ منه، فذهب في أثره، فأدركَ الشيخُ ذلك، والتفتَ إلى الرجل، وبزقَ، فتعجَّبَ الرجلُ من ذلك، وقال في نفسه: إنَّ ما سمعتُ في هذا الباب كان كذبًا، والشيخُ أدّبني. فأدركَ الشيخُ هذا أيضًا، وقال: يا ولدي، صحَّ ما سمعتَ، ولكن إذا أردتَ الاطلاعَ على سرٍّ من الأسرار فعليك بالكتمان؛ فإنَّ من يكتمُ سرَّ السلاطين يكبرُ شأنُه.

ونقل أنَّ امرأةً ذاتَ جمالٍ عشقتْهُ، وهو شابٌّ حَدَثٌ، وكثيرًا ما دعته، فلم يقبلْها إلى أن سمعتَ أنَّ الشيخَ في بستانٍ، فزيَّنَتْ نفسَها، وقصدتِ البستان، ودخلته، وحين اطَّلعَ الشيخُ عليها، هربَ منها، وهي تسعى خلفه، وتصيحُ وتقول: يا فلان، لِمَ تسعى في هلاكي؟ والشيخُ لم يلتفتْ إليها، وصعدَ حائطًا، وألقى نفسَه منه، وذهب، ولما كبرَ وشابَ تذكَّرَ يومًا ما جرى بينه وبينها، وخطرَ بباله: لو قضيتُ حاجتها، وإنّي كنتُ شابًّا ثم تبتُ، ثم قال: كربتُ لذلك كربًا شديدًا، وقلت: ما خطرَ هذا ببالي، وقد كنتُ أربعين سنة، والآن يخطرُ ببالي مثلُ هذا، وأنا ابنُ ثمانين سنةً، ومضى عمري في الرياضة والمجاهدة، وظننتُ أنّي نزلتُ من مقامي، واغتممتُ غمًّا عظيمًا حتى حصل لي مرضٌ، وكنتُ أفتكرُ في سببِ هذا الخاطر، ثم رأيتُ النبيَّ ﷺ بعد ثلاث ليالٍ، وقال لي: لا تحزنْ يا مُحمد، فإنَّ ذلك الخاطرَ لم يكن بسببِ نقصان مرتبتك؛ بل لأنَّه مضى علينا أربعون سنةً أُخرى، وطال العهدُ بيننا وبينك، فما جرى عليك ما كان لأجلِ قصورٍ ونقصانٍ فيك، بل لبعدِ العهدِ، وطولِ المفارقة.

ومن كلماته أنه قال: إنَّ السالكَ بعد رياضاتٍ كثيرة، وآدابٍ ظاهرةٍ

وباطنة، وتهذيبِ الأخلاق، وتصفيةِ الباطن يستنيرُ قلبُه بأنوارِ عطيَّات الله تعالى، وينشرحُ صدرُه، وتدخلُ نفسُهُ في فضاءِ عالم التوحيد، ويفرحُ بذلك فرحًا شديدًا، فلا جرمَ أنَّه يختارُ العزلةَ عن الناس، ويشرعُ في الكلامِ، ويشرحُ للناس ما فتح الله له في الطريق، وهم يعزّونه ويُكرمونه ويوقِّرونه، وحينئذ تغترُّ نفسُه، ويخرجُ من باطنه مثلُ أسد، ويركبُ عنقه، ويفوتُ عنه حينئذ جميعُ ما أدركه من لذَّةِ المُجاهدة من أوّل أمره إلى ذلك اليوم، وتهربُ منه كسمكةٍ هربَتْ من الشبكة، وتغوصُ في بحرٍ ولا يقدرُ بعده على ردِّه إليه، فإنَّ النفسَ عند وصولها إلى فضاءِ التوحيد أَخبثُ وأمكرُ بأضعافِ ما كانت في الابتداء، لأنَّها في مبادىء حالها مقيَّدةٌ بضيقِ البشرية، مسجونةٌ في سجنها، وهي مبسوطةٌ مُطلقَةٌ في فضاء عالم التوحيد وسعته، فإيَّاكَ إيَّاك والأمنَ من مكائدِ النفس وحيلها، وعليك أن تجتهدَ حتى تظهر عليها.

نقل أنه قال: احذروا الشيطان الذي منزلُه فيكم.

ونقل أنَّ آدمَ وحواء عليهما السلام حين التقيا في الأرض، وقُبلت توبتُهما، فغاب آدم عليه السلام يومًا إلى شغلٍ، وجاء إبليس عليه اللعنة إلى حواء عليها السلام بابنٍ له يسمى الخنّاس، وأودعَهُ عند حواء، وقال: عُرض لي شُغلٌ، فيكون عندك إلى أن أرجع. فذهب عليه اللعنة، وجاء آدم عليه السلام، وسأل حواء: من هذا؟ قالت: هو ابنُ إبليس عليه اللعنة، تركه عندنا إلى أن يرجع. فلامها آدمُ عليه السلام، واغتاظَ، وأخذَ الخنّاسَ وقتله، وقطّعَهُ قطعةً قطعة، وعلّق كلَّ قطعةٍ منها على غصنٍ من الشجرة، وترك وذهب في شغلٍ، ثم رجع إبليس عليه اللعنة، ودعا إليه ابنه، فاللهُ تعالى جمعَ أعضاءَه كلَّها وأحياه، فقام وجاء إلى إبليس عليه اللعنة.

ثم نوبةً أُخرى تركه عند حواء عليها السلام، وقال: لي شغلٌ، يكون عندك حتى أرجع؟ فامتنعتْ حواء عن ذلك، فألحَّ إبليسُ حتى قبلته حواء عليها السلام، وجاء آدم، وقال: من هذا؟ قالت: هو الخنّاس بنُ إبليس عليه اللعنة. فغضب آدم عليه السلام، وقتله ثانيًا، وأحرقه، وذَرَّ رمادَهُ نصفَه في الهواء،

ونصفه في الماء، ثم حين غابَ جاء إبليس عليه اللعنة، وقال: أين ابني؟ فأخبرته حواء عليها السلام بالحال، فدعا إبليس إليه ثانيًا، فجمعَ اللهُ تعالى أجزاءَه وسوّاه كما كان، فجاء إلى إبليس.

ثم إنّه تضرَّعَ إليها نوبةً ثالثة ليبقى عندها، واستشفعَ كثيرًا، وأبتْ حواء عن ذلك إلى أن أقسم بالله، ولانَتْ حواء في القبول ـ ونقل أنه عليه اللعنة جاءَ به إليها في النوبةِ الثالثة على صُورةِ غنمةٍ وتركها عندها ـ وذهب، وجاء آدم عليه السلام، وسألها عنه، وغضبَ غضبًا شديدًا، وقال: مالكَ لا تَقبلينَ كلامي، وتَمْتثلينَ أمرَ عدوِّ الله، وتغترّين بكلامه؟ فعمدَ إليه وذبحه، وطبخه، وأكلَ هو نصفَه، وحواءُ نصفَه، ثم جاء إبليس عليه اللعنة، وعلمَ بالحال، ففرحَ به فرحًا عظيمًا، وقال: حصلَ مقصودي، إذ ما كان مُرادي إلاّ أن يكونَ له منزلٌ ومقام في باطنكم. يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ـ٥].

وقال الشيخ محمد رحمه الله: مَنْ تبقى فيه من صفات بشريته ذرَّةٌ، فهو كمُكاتَبٍ يبقى عليه من نجوم الكتابة دِرهمٌ، فإنّه بَعدُ رقيقٌ مثله، والحال أنّه رقيقٌ لأجل دِرهمٍ إلاّ من أنجاه الله تعالى من رقِّ نفسه، وحرَّرَه، فهو مثل مُكَاتَبٍ أدّى جميعَ النُّجوم، وصار عتيقًا، وهو المجذوب الذي أعتقَه الله تعالى، ثم جذبه، وهو الحرُّ الحقيقي، كما قال الله تعالى: ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] فأهلُ الاجتباء هم أَهلُ الجذبة، وأهلُ الهداية هم الذين طلبوهُ بالإبانة(١) والرجوع إليه.

وقال: من كان جاهلاً بأوصافِ العبودية، فهو بأوصافِ الرُّبوبية أَجهل.

وقال: أَتريدُ أن تعرفَ ربَّكَ مع بقاء نفسك؟! ونفسُكَ لاتقدرُ أن تعرفَ نفسها.

---

(١) في (ب): الذين طلبوا بالإبانة.

وقال: من أقبح خصال المرء الكِبرُ، لأن الكِبرَ لا يصحُّ إلاّ لمن لا يكونُ فيه عيبٌ.

و: الاختيارُ لمن يكونُ علمُه بعيدًا عن الجهل.

وقال رحمه الله: مئةُ ذئبٍ جائعة لا تضرُّ قطيعَ غنمٍ كمضرَّةِ شيطانٍ ساعةً في إنسان، ومئة شيطان لا يوصل الضَّررَ إلى الإنسان مثل نفسه.

وقال: يكفي الإنسانَ عيبًا ونقصًا أنه يُسرُّهُ ما فيه خسرانه.

وقال: إن اللهَ تعالى ضمنَ أرزاقَ العباد لهم، فعلى العباد أن يضمنوا له التوكُّلَ.

وقال: عليكم بمراقبةِ من لا ينقطعُ نظرُهُ عنكم، وشكرِ من لا تَنقطعُ نعمتُهُ عنكم، وعليكم بالتواضع لمن لا يمكنُ الخروجُ عن مُلكه وسلطنته خطوة.

وقال: حقيقةُ محبَّةِ الله تعالى دوامُ الأُنسِ بذكره.

وقال: من يقول: القلبُ غيرُ متناهٍ، فهو مُخطئٌ في مقاله، كيف وللقلب كمالٌ معلومٌ، يقفُ عند الوصول إليه، ولكنَّ الطريقَ غيرُ مُستتمٍّ ومتناه، كما بيّنّاه في «شرح القلب».

وقال: ما تجلّى الاسمُ الأَعظمُ قطُّ إلاّ في عهد النبيِّ ﷺ.

نسألُ اللهَ تعالى أن يفيضَ على أرواح أوليائه زُلالَ رحمته وكرمه ورضوانه وإحسانه، وأن لا يقطعَ عنَّا إنعامَهُ وألطافه، وأن يَحشرنا في زمرتهم، إنه كريمٌ رحيم، رؤوفٌ حليم، وأن يُصلّي على سيِّدنا محمدٍ وآله الطيبين، وعترتِهِ الطاهرةِ أجمعين.

* * *